الفصل الثالث

مصر وإيران

obeikandl.com

obeikandl.com

| 1 |

محاولات تطبيع العلاقات المصرية الإيرانية

أصبحت العلاقات المصرية الإيرانية واحدة من الحالات النادرة فى العلاقات الدولية، فلم يحدث أن انقطعت علاقات مصر الدبلوماسية مع دولة من قبل ٢٨ عاماً مثلما هو حادث مع إيران.

وإذا كانت إيران هى التى قطعت العلاقات مع مصر عام ١٩٧٩ بعد قيام الثورة الإسلامية احتجاجا على منح مصر اللجوء لشاه إيران ورفضها تمكين إيران من أموال الشاه، فإن الشاه نفسه قد توفى بعدها بأسابيع ورحلت أسرته من مصر كما أن السادات نفسه قد مات بعدها بعامين ونصف، ولم يبق لاستعادة العلاقات سوى الإجراءات، ولم يحدث أن الاختلاف فى المواقف والسياسات كان سبباً فى استمرار قطع العلاقات وإلا كانت العلاقات مع معظم الدول قد قطعت.

وعلى أية حال فإن استمرار قطع العلاقات من وجهة نظر البلدين ربما كان له ما يبرره خلال الحرب العراقية الإيرانية التى ساندت فيها مصر إيران ضمن منظومة الدول العربية الحليفة لواشنطن حينذاك و لتى كان التحالف يملى عليها مصادفة صدام حسين وتدليله حتى النهاية. وخلال السنوات السبع الماضية كانت هناك أيدى ممدودة بين إيران لمصر لأن مصر هامة لإيران، كما أن إيران بالغة الأهمية بالنسبة لمصر، وتم الاتفاق فعلا على إعادة العلاقات المقطوعة رسمياً عام ٢٠٠٤ خلال لقاء الرئيس مبارك بالرئيس خاتمى الذى يعتبره الكتاب العرب على عادة

الغرب أنه من المعتدلين، ولكن التنفيذ تعثر بشكل غامض. ثم حدثت لقاءات بين غرف التجارة والصناعة فى البلدين، وأخيراً صدرت تصريحات إيرانية فى بداية عام ٢٠٠٧ تتلهف على العلاقات مع مصر. فرغبة إيران فى العلاقات مع مصر لم تفتر يوماً ولم تتناقص يوماً.

ولكن المشكلة كانت دائماً فى الجانب المصرى الذى استغلت موقفه على الفهم حتى أصبح التساؤل مشروعاً حول تمنع مصر فى الاستجابة للنداءات الإيرانية؟ أهى مصلحة مصرية؟ وما هى هذه المصلحة التى تبرر ارتباك الموقف المصرى؟ أم هى الولايات المتحدة وإسرائيل وهو عامل حاسم فى القرار المصرى سلباً وإيجاباً؟

فوجئنا بإعلان السيد وزير الخارجية أن مصر قررت رسمياً عودة العلاقات وإرسال وفد لهذا الغرض، بينما كان الوزير فى يوليو الماضى يصرح بأن إيران تهدد الأمن القومى المصرى فى العراق وفلسطين بسبب علاقتها بحماس ثم أعلن الرئيس مبارك بعد ذلك بيومين فقط أن إيران دولة صديقة ولا تهدد أحداً، وأن الأولوية فى فلسطين للحوار بين حماس وفتح.

إذا كان الثابت أن عودة العلاقات يجلب المصلحة للطرفين فلماذا ترددت مصر ثم أقدمت فجأة ودون مقدمات. إذا كان الأمر يتعلق فقط بالضعف فى إدارة الملف فهذا أهون من الافتراض بأن إقبال مصر قد تم بإيحاء أمريكى، خاصة أنه جاء بعد أسبوعين من دعوة قمة مجلس التعاون الخليجى فى الدوحة للرئيس أحمد نجاد لحضور الدورة.

فإذا كانت مصر ودول مجلس التعاون تتقاربان من إيران الآن فى وقت تحاول واشنطن عزل إيران وتشديد النكير عليها حتى تخفض سقف شروطها للتسوية مع واشنطن، فهل مصر ودول التعاون الخليجى تحدى واشنطن وهو أمر مشكوك فيه؟

أم الأرجح أن لواشنطن هدفاً قد لا تفهم مصر ودول المجلس من وراء دفعهما للتقارب مع إيران؟.

وأخيراً، إذا كانت لدى دول مجلس التعاون ما يدفعها إلى التوافق مع واشنطن، فما الذى يدفع دولة بحجم مصر إلى ذلك والظهور بمظهر المتخبط الذى لا يرضاه لها أبناؤها المخلصون.

والخلاصة، أن ما يحدث بين مصر وإيران فصل من مسلسل ساذج الإخراج، ولكنه يفيد إيران ويضع نحن المصريين فى موضع الدهشة على الأقل؟

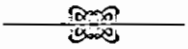

obeikandl.com

| 2 |

مصر وإيران القضية النووية محاولة للفهم

أمامنا ثلاثة مشاهد يتعين فهم العلاقة بينها. أول هذه المشاهد هو الملف النووي الإيراني الذي يثار منذ عدة سنوات ولكنه شهد تصعيدًا متبادلاً بين تطور الأنشطة النووية والمواقف السياسية الإيرانية مقابل تصميم الولايات المتحدة على حرمان إيران مما تسميه الطموحات النووية الإيرانية ، ورغم ذلك تعترف الولايات المتحدة بحق إيران وفق أحكام المادة الرابعة من اتفاقية منع الانتشار النووي بالاستفادة من الاستخدامات السلمية للطاقة النووية بل وتلزم الدول النووية بتقديم الوقود النووي للمفاعلات في الدول غير النووية ، ولم تحظر قيام هذه الدول نفسها بتجهيز الوقود اللازم لهذه المفاعلات ، وليس هناك خشية من تحول الدولة من الاستخدام السلمي إلى الاستخدام العسكري مادامت الدولة تخضع لنظام التحقق والتفتيش من جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وهو نفس السبب الذي تدفع به إيران للرد على الملاحقة الأمريكية لها ، وكلاهما إيران والولايات المتحدة يعلمان جيدًا أن الأزمة ليست في الملف النووي وإنما هي أزمة سياسية سببها أن إيران من الدول المناهضة للسياسة الأمريكية وأنها تطاولت على المقدسات الصهيونية فطعنت في المحرقة وفي سبب قيام إسرائيل ونسفت كل الدعاوى الصهيونية التي تتمسح بالتوراة والتاريخ والأساطير الأخرى التي فصلها جارودي في كتابه حول الأساطير المؤسسة للدولة العبرية .

في نفس المشهد تناهض واشنطن حق إيران في تخصيب اليورانيوم استنادًا إلى ثلاثة دفوع:

الأول أن إيران من أكبر الدول المنتجة للنفط وليست بحاجة على الطاقة الذرية .

والثاني هو أن الطاقة الذرية محوطة بمخاطر ضعف الأمان مما يهدد الإنسان والبيئة ، والثالث أن إيران مناهضة لإسرائيل ، والدفع الثاني تتبناه أيضًا دول الخليج .

المشهد الثاني : الذي استجد بينما المشهد الأول لا يزال ملتهبًا والتكهنات حول مصيره تشغل كل المحللين والمراقبين ، ونعني بالمشهد الثاني إعلان مصر المفاجئ خلال المؤتمر السنوي الرابع للحزب الحاكم في الأسبوع الأخير من سبتمبر ٢٠٠٦ أن مصر اتخذت قرارًا بإحياء الصناعة النووية التي توقفت خوفًا مما سببه مفاعل شيرنوبل من أثار عام ١٩٨٦ بعد أربع سنوات من تصديق مصر على اتفاقية منع الانتشار النووي ، ويبدو أن ذلك كان أحد التفاهمات المصرية الأمريكية الإسرائيلية بدلاً من أن تعلق مصر انضمامها إلى المعاهدة حتى تنضم إسرائيل ، قامت بإحراق هذه الورقة في يدها مجانًا لأسباب تعذر على الدارسين والمتابعين فهمها .

القرار المصري أعلن فجأة دون مقدمات بعد أيام من رفض مؤتمر الوكالة الدولية للطاقة الذرية مشروع قرار عربي يدين التسلح النووي الإسرائيلي ويطالب إسرائيل بالانضمام إلى معاهدة منع الانتشار النووي والدخول في نظام التفتيش الدولي خاصة بعد أن أعلنت الوكالة نفسها عام ٢٠٠٥ أنها تعتقد أن لدى إسرائيل عدد كبير من الرؤوس النووية ثم زار البرادعي إسرائيل وطوى الملف .

القرار المصري أعلن أيضًا في وقت يشتد الجدل حول الملف النووي الإيراني وتوشك واشنطن أن تقايض العراق بالملف الإيراني أي التسامح مع المطالب الإيرانية النووية مقابل تعاون إيران مع واشنطن في معالجة مناسبة للملف العراقي

خاصة بعد تأكيد أحمدي نجاد لنور المالكي خلال زيارته لطهران في سبتمبر ٢٠٠٦ ما يشير إلى أن لإيران قدرة على تهدئة الأوضاع الأمنية في العراق ، ثم أعقبه اتهام الرئيس العراقي جلال الطالباني إيران وسوريا بدور في الأزمة العراقية وكذلك اتهامات أخرى لإيران والسلطات العراقية في المذابح الطائفية الغامضة يوميًا في العراق .

شددت مصر دائمًا على أنها تريد الشرق الأوسط خاليًا من أسلحة الدمار الشامل بما فيها الأسلحة النووية ، ولذلك أكد الإعلان المصري على الطابع السلمي لبرنامجها النووي وأن من حقها وفق معاهدة منع الانتشار النووي الاستفادة من الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وأنها كطرف في المعاهدة تخضع لنظام التفتيش . أكدت مصر أيضًا أن السبب لهذه الخطوة النووية هو توفير مصادر الطاقة بعد أن أرهقها استيراد مواد الطاقة البترولية طوال هذه السنوات ، مما يبرر تخصيص ميزانية الإنفاق النووي الضخمة خلال سنوات الإعداد العشر القادمة .

يلاحظ في المشهد المصري أن إسرائيل أعلنت أنها لا تخشى البرنامج النووي المصري ، وأن واشنطن تبارك الخطوة المصرية وتشجعها وترحب بأن تكون شريكًا نوويًا ، في نفس الوقت تؤكد الحكومة المصرية منذ ثمانينات القرن الماضي أن حيازة إسرائيل للسلاح النووي لا قيمة له عسكريًا بسبب مخاطر استخدامه في مساحة ضيقة تضر بإسرائيل قبل غيرها ، علمًا بأن إسرائيل تستخدم منتجات عسكرية نووية في أنشطتها العسكرية في فلسطين ولبنان مثلما فعلت الولايات المتحدة ضد العراق عام ١٩٩٩١ وعام ٢٠٠٣ . كذلك تشهد الساحة المصرية والعربية مطالبات بالتسلح النووي أو على الأقل الاستفادة السلمية من الطاقة النووية إزاء سلوك إسرائيل البربري في الأراضي العربية .

في نفس المشهد نشير إلى أنه في أواسط عام ٢٠٠٥ أثارت واشنطن زوبعة ضد ما أسمته محاولات مصر السرية حيازة السلاح النووي ويومها صدرت تقارير وتصريحات غامضة من الوكالة ثم تصريح أخير بإبراء الذمة ثم دفن الموضوع بعد أسابيع من إثارته.

في نفس الوقت أيضًا شددت مصر على أن إحياء المشروع النووي هو خطوة حضارية ضخمة تؤهل مصر لدخول القرن الجديد، وغيرها من التصريحات التي لا تستحق أن نتوقف عندها في سياق هذا التحليل.

السؤال: هو هل قررت مصر وحدها إحياء البرنامج النووي وفوجئت به أمريكا وإسرائيل أو بالتفاهم معهما؟

وهل رحبت واشنطن بالبرنامج المصري أم هي التي أوحت به في إطار معالجتها للملف الإيراني، رغم أن إثارة الملف المصري الذي لن يظهر إلى الوجود إلا بعد عشر سنوات على الأقل يفيد الموقف الإيراني علمًا بأن هناك فارقًا ضخمًا بين مصر وإيران من هذه الزاوية، فمصر حليف للولايات المتحدة وهي تعلن منذ البداية خلافًا لإيران التي ظل برنامجها سريًا بعد أن تقرر إحياؤه عندما توقف برنامج الشاه بقيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩. وخلال سنوات الإعداد المصري الطويلة لا تزال الفرص أمام إسرائيل والولايات المتحدة للاعتراض إذا تغير مناخ العلاقات المصرية معها.

أما الفارق الثالث فهو أن إيران توظف الملف النووي لكي تقنع واشنطن بأنها شريك في السياسات الإقليمية في الخليج وأنها تستحق ذلك وقادرة عليه، وأن عداءها للشيطان الأكبر ليس قدريًا أو أيديولوجيًا بل هو عداء سياسي يزول بزوال أسبابه.

بقي الفارق الرابع وهو العامل الإسرائيلي ، فإسرائيل طرف في الحالين ، في حالة مصر فإن الوضع يختلف حيث تؤكد مصر حرصها على إسرائيل ، وحقها في الحياة ولا تشكك في الهولوكوست وتغمض عينيها كلتيهما في الكثير من الأحيان حتى لا تستثير إسرائيل خاصة منذ أن صرحت كونداليزا رايس بأن من أحب إسرائيل فقد أحب أمريكا .

وإذا كان الإعلام المصري إيعازًا من أمريكا ، فما هو الهدف ؟ هل هو رسالة مزدوجة إلى إيران : **الأولى** أنها تعني أنه بوسع الدولة الحليفة المسالمة الواضحة أن تحوز الطاقة الذرية مادامت أهدافها واضحة ويمكن التحقق منها ، بل يمكنها حتى أن تكون نووية مادامت حليفة مثلما هو حال إسرائيل والهند ، **الرسالة الثانية** : أن إصرار إيران على الخيار النووي قد فتح الباب أمام سباق التسلح النووي خاصة وأن التيار الأغلب في الصحافة الأمريكية كان قد حذر من أن تسلح إيران سيدفع دولاً مثل مصر والسعودية على التسلح أيضًا ولكن هذا التحذير لا يتسم بالجدية لأن سباق التسلح النووي من الجانب العربي سيضر بإسرائيل فتواجه مجموعة نووية بدلاً من دولة واحدة وهم يعلمون جيدً أن بقاء الحال من المحال خاصة في ظل تصرفات إسرائيل التي استفزت الشارع العربي فضلاً عن السلوك الأمريكي .

المشهد الثالث : يقوم على تصريح لوزير الخارجية المصري في ٢١ / ٩/ ٢٠٠٦ يتعلق بإنشاء منتدى غير رسمي يضم مصر والأردن ودول مجلس التعاون الست + الولايات المتحدة أي ٨+١ وأن هذا المنتدى سوف يتولى التعامل مع إيران في شأن ملفها النووي .

المعلوم أن جميع هذه الدول التسع عدا مصر والولايات المتحدة تقيم علاقات رسمية مع إيران، وأن محاولات إقامة علاقات مصرية إيرانية منذ قطعتها إيران عام

١٩٧٩ تراوحت مجالا معينًا ، والثابت أن هناك مصلحة مصرية محققة في إنشاء هذه العلاقات ، وأن مصر كانت تعرف حين يكون الإقبال الإيراني في غايته ، بينما أقبلت مصر في لحظة انصراف إيران ، وفي أحيان قليلة كانت الرغبة مشتركة من الطرفين فأحال حائل دون إتمام القران .

البعض يرى أن العامل الأمريكي أهم من إرادة الطرفين عى الأقل في أثره على القرار المصري ، والبعض الآخر يرى غير ذلك ، وأن إرادة الطرفين إيران ومصر متوفرة لولا سوء الحظ وتغير الظروف . فهل هذا المنتدى هو أحد الترتيبات الأمريكية كخط متقدم للحوار مع إيران لحساب واشنطن وبتوجيهاتها ، وهل هو مع الاتحاد الأوروبي أم بديل عنه ؟

تلك مشاهد ثلاثة : المشهد الإيراني ، المشهد المصري ، المشهد المختلط أو منتدى الحوار ، وهذا الأخير قد يسهم في وصل العلاقات المصرية الإيرانية في سياق متعدد بدلاً من السياق الثنائي الذي قد يثير قلق غيرهما ، وهل تمتد مهمة هذا المنتدى لتشمل كل القضايا الإقليمية الأخرى مثل فلسطين ولبنان وهل هو يقصد عزل سوريا والحوار مع إيران أم يقصد تليين إيران أولاً ثم التوجه إلى سوريا ؟

المؤكد أن هناك علاقة ما بين هذه المشاهد الثلاثة والمؤكد أن المصلحة العربية في هذه المشاهد غير واضحة ، والمؤكد أخيرًا أن بطل المشاهد الثلاثة هو الولايات المتحدة .

| 3 |

مصر وحزب الله

اللافت للنظر أن مصر الرسمية مصرة على اتخاذ موقف من حزب الله لا يتسم بالعداء بقدر ما يتسم بالنقد المستمر والمتكرر. وكانت الإشارات الأولى عندما أعلن الرئيس مبارك خلال العدوان الإسرائيلي على لبنان في يوليو ٢٠٠٦ نقده لعملية خطف الجنديين الإسرائيليين من جانب مقاتلي حزب الله. وأوضح الرئيس مبارك في تصريحات متفرقة أن الحزب جزء من التشكيلة الوزارية اللبنانية، وأنه اتخذ قرار خطف الجنديين وهو يعلم بالآثار والرد الإسرائيلي ومع ذلك لم يتشاور مع بقية أعضاء الحكومة حتى يمكن اتخاذ الترتيبات اللازمة لإعداد البلاد لهذه الآثار المدمرة. كان واضحاً أن نقد الرئيس للحزب ينصب أساسا على فداحة الدمار الذي لحق بلبنان، وعدم التناسب بين خطف جنديين وبين كل هذا الدمار، وهو نقض كان يجب أن يوجه إلى إسرائيل وليس لحزب الله.

وافترض الرئيس أن الحزب أقدم على الخطف وهو مدرك لا حتمالات الرد الإسرائيلي، خلافاً لحالات الخطف السابقة، ورغم تأكيد السيد حسن نصر الله أمين عام الحزب الذي أعلن مرات عديدة أن سياسة الحزب هي اللجوء إلى الخطف لكي يبادل المخطوفين مع الأسرى الذين أمضوا عقوداً في السجون الإسرائيلية والذين تضم قائمتهم لبنانيين وفلسطينيين وعرباً آخرين غيبتهم ظلمات هذه

السجون والتعذيب الوحشى لهم، وليسوا على أجندة أحد فى العالم العربى وكأن قضيتهم أمرمشين للعالم العربى ويسئ إليه وأنه من العار الحديث عن هذه القضية. ولكن الرئيس مبارك كرر موقفه دون أن يبدو أنه أخذ فى الاعتبار إيضاحات الحزب، وربما كان بذلك يرد على الملاحظات القاسية ضد بعض الزعماء العرب. ولكن القضية فى ظنى ليست رد الرئيس أو تأكيد موقف لأن مصر دولة كبرى ولابد أن يحظى موقفها بالتحليل المنطقى وأن تتحدد المصلحة الوطنية وراء هذه المواقف.

فى نفس الاتجاه تواترت تصريحات وزير الخارجية المصرى التى تنتقد حزب الله على أساس أن الحزب ينفذ أجندة أجنبية بعيدة عن المصالح اللبنانية، وأن خطف الجنديين كان خطأ مقصوداً ويهدف إلى أن يفلت الحزب من استحقاق نزع سلاحه فى إطار الحوار الوطنى وأضاف إلى ذلك أن حزب الله تسبب فى المزيد من احتلال الأراضى اللبنانية أى أن تصرف الحزب سبب العكس من منظور المصلحة اللبنانية.

هذا الموقف الرسمى المصرى يسانده موقف فكرى وثقافى لعدد من الكتاب من بينهم مفكرون لهم علاقات دافئة مع الولايات المتحدة، وبعضهم ينتقد الحزب من موقع طائفى، أو من موقع علمانى يعادى الخط الدينى الإسلامى أصلاً. على الجانب الآخر يقف الشارع المصرى كله تقريباً مع حزب الله ويصدق بياناته. هذا التقابل التام بين الموقف الرسمى وبعض الموقف الفكرية المحدودة للغاية فى مصر لابد له أسبابه التى يتعين تحليلها فى هذه المقالة.

أما الموقف الرسمى المصرى، فمن الواضح أنه لم يتفادى اتهام الحزب صراحة بأنه ينفذ أجندة محددة سورية أو إيرانية، وهو يقدح بذلك فى وطنية الحزب ولبنانيته. من الواضح أيضاً أن مواضع النقد المصرى للحزب تكرار للموقف الذى تؤكده قوى ١٤ آزار فى لبنان، كما تلتقى بغير تفصيل كثير مع بعض المواقف

الرسمية العربية. من الواضح ثالثاً أن الموقف الرسمى المصرى أدان العدوان الإسرائيلى والدمار الذى سببه، وطالب بالموقف الفورى لإطلاق النار، كما بادرت مصر إلى إصلاح الخلل الذى اعترى قرار مجلس الأمن ١٧٠١ وطالب الجميع باحترامه على أية حال طلبا للهدوء فى لبنان، كما تبدى مصر الرسمية قلقها على تطورات الوضع الداخلى للبنان حتى قبل العدوان وكان لها بعض المساعى لإنجاح الحوار الوطنى وتجنب الحدة التى قد تشعل الحرب الأهلية من جديد.

من الواضح رابعاً أن موقف مصر يؤثر بشكل ما حتى فى ظل انسحاب الدور المصرى وانكماشه وانكفائه على نفسه، ولسوء الحظ فإن موقف مصر مع دول أخرى منذ يوم ١٣/ ٧/ ٢٠٠٦ أى يوم اليوم التالى للعدوان الإسرائيلى، كان له أبلغ الأثر على الموقف الإسرائيلى والأمريكى فى الحرب، بل تجاسرت إسرائيل على البوح بأن زعماء عرباً اتصلوا بها لتشجيعها على سحق حزب الله. فالثابت حقاً أن هذا الموقف استفز الشارع العربى والإسلامى وأشار بأصابع اتهام ظلت تكبر كلما أمعنت إسرائيل فى عدوانها، وعانت من صمود احزب وانهيار المخطط الإسرائيلى.

الثابت أيضاً أن إسرائيل التى أوهمت نفسها بأن المواقف الرسمية العربية تؤيد عدوانها وتباركه أوهمت نفسها أيضاً بأن حزب الله مكروه ومعزول فى العالم العربى، وأن سحقها له هو فرض كفاية عن هذا العالم العربى الذى يقدر لها حسن صنيعها ويدخلها إلى قلوب العرب بهذا العمل القدرى. والذى لابد أن تعلمه إسرائيل جيداً هو أن حسن نصر الله تحول إلى أيقونة ورمز وتحول الحزب خارج لبنان إلى رمز للصمود فى مواجهة غطرسة القوة والإذلال والتواطؤ المكشوف بين إسرائيل وأمريكا. وإذا كان المقام لا يتسع لتحليل مدلول بعض المواقف العربية، فإنه تكفى الإشارة إلى أن فشل إسرائيل فى توظيف قوتها العسكرية والغطاء

الدبلوماسى الهائل والذى توفر لها واعترافتها منذ البداية بأنها تنفذ خطة مدبرة وأنها أصبحت مؤهلة لكى تنفذ فى حزب الله قرارات مجلس الأمن الذى لم تحترمه يوماً قد أشعل الحماس فى الشارع العربى والإسلامى للحزب وأمينه العام وهو يلحظ بالأسى السكوت العربى الشامل، حتى خرجت من هذا الشارع كل صور الإدانة والاتهام للحكومات العربية واستعلى هذا الشارع على بعض التلميحات الطائفية الصادرة عن بعض الحكومات العربية، واستغربت أن تدين هذه الحكومات المؤامرة الأمريكية الطائفية فى العراق فى الوقت الذى تمارس نفس الشئ مع حزب الله.

ولكن الذى يهمنا فى هذه المقالة بشكل محدد تلك الأسئلة الملحة فى تحليل الموقف المصرى من حزب الله.

فلماذا تعادى مصر حزب الله وتدخل نفسها طرفاً فى صراع لبنانى داخلى وأين مصلحتها فى ذلك؟ ولماذا يؤيد الشارع المصرى وجميع القوى السياسية المصرية بلا استثناء، بينما تقف الحكومة موقفاً معاكساً؟

هذا السؤال يطرح بإلحاح على الحكم فى مصر حتى يوضح للشعب هذا الفارق الضخم فى الموقف من حزب الله. ألا يدافع الحزب عن أرض لبنانية؟ وألا يدافع ضد أعتى آلة حربية معتدية إسرائيلية، وألا يسعى الحزب إلى تحرير الأسرى العرب؟ وحتى لو التقت المصالح السورية والإيرانية مع حزب الله ضد إسرائيل والولايات المتحدة، أليس ذلك أمر يتعلق بمعركة واشنطن وإسرائيل مع أعدائها؟. ولماذا تنكر مصر أن يتلقى حزب الله اللبنانى المساندة من سوريا وإيران وحتى من الشيطان مادام يدافع عن أرضه، بينما لم تنكر تبجح أمريكا بمساندتها لإسرائيل فى عدوانها بكل أنواع الأسلحة المحرمة والعالم كله يتفرج على هذا المشهد المخزى. وألا تدرك الحكومة المصرية أن موقفها بعيد للغاية عن موقف شعبها،

وهل كانت مصر الرسمية تأمل حقاً أن تنتصر إسرائيل وتسحق حزب الله وتحتل لبنان حتى يقال أن نقد الحزب فى البداية نابع من بعد النظر والحكمة، وأن الحزب لم يحسب للأمر حسابه وأن طيشه واندفاعه أعمياه عن جدية تحليل النتائج المختلفة.

وهل تحرص مصر الرسمية على المخطوفين الإسرائيليين بينما لا يهمها الأسرى العرب مادام الحديث عن هؤلاء الأسرى سيقلب المواجع على أسرانا الذين أعدموا وهم أمانة فى يد القوة الغاشمة الآسرة دون أن تحرك مصر ساكناً، أم أن إرغام حزب الله إسرائيل على اتباع قواعد لعبة مختلفة معه قوامها الجدية بحرج الحكومات العربية جميعاً وبشكل أخص مصر الرسمية التى تتسامح بشكل لافت مع العبث الإسرائيلى المتكرر بأرواح جنودنا داخل منطقة الحدود المصرية الإسرائيلية. وما هى المصلحة التى تعود على مصر من موقف مصر الرسمية من حزب الله ومواصلة نقده فى هذا الظرف الدقيق الذى يوزع فيه الحزب اهتمامه على الحملة الدولية ضده لإضعافه وتحجيمه ومنعه من الرد على تطاولات إسرائيل وتماديها ضد لبنان كما يرجز اهتمامه على الساحة الداخلية بعد أن أدى تدويل المسألة اللبنانية خاصة بعد العدوان الأخير إلى خلط الأوراق الداخلية والدولية لصالح إسرائيل. وما هى مصلحة مصر فى نزع سلاح حزب الله.

كما أننا نتساءل أيضاً عن مصلحة مصر فى الاشتراك فى الحملة الدولية لحصار الشعب الفلسطينى وإسقاط حماس لصالح فتح وتدهور الأوضاع ودخولها إلى حرب أهلية. إذا كانت مواقف مصر الرسمية تعبر عن مزاج شخصى فلا نظن أن هذه المسألة يصح فيها العنوية والتعبير التلقائى عما تكنه قلوب الساسة، أما إن كانت المواقف مدروسة فإننا نأمل بصدق أن يتفضل الحكم بتوضيح الاعتبارات والمصالح التى جعلت موضوع حزب الله الشاغل اليومى تقريباً لوزير الخارجية.

وإذا كان مفهوما، وإن لم مقبولا، أن يفسر موقف الحكم من حماس بمقاييس المسرح الداخلى المصرى وعليه لاعب جديد هو الإخوان المسلمون، وعلاقة الإخوان بحماس، فهل نفس المقاييس هى نفسها التى تدفع إلى الخشية من أن ارتفاع أعلام الحزب ترفع أعلام الإخوان فى مصر والتيار الإسلامى عموماً؟. وهل لو كان حزب الله حزباً مسيحياً وتصادف جدلاً أن كان حليفاً لأمريكا ويدافع عن لبنان ضد إسرائيل، فهل موقف مصر الرسمية سوف يتغير؟.

| 4 |

نجاد وعبد الناصر ومفارقات الأقدار

أحمدي نجاد ومعركته ضد الغرب لتأكيد حق إيران في الاستفادة السلمية من الطاقة النووية يذكرنا بمعركة سلفه مصدق الذي كان يؤكد بالتأميم حق إيران في السيطرة على مواردها الطبيعية من النفط ، بصرف النظر عن حكم محكمة العدل الدولية في ذلك الوقت من عام ١٩٥١ ومصير مصدق وعودة نظام الشاه بعد إزاحته في حركة مصدق ، فالرسالة واحدة وهي تأكيد حق الشعب الإيراني وقراره المستقل في مسألة مشروعة .

وبعد مصدق بخمس سنوات قام جمال عبد الناصر في مصر وربما مقتديًا ومعجبًا بمصدق إيران بتأميم قناة السويس بعد قرن تقريبًا من الاستغلال المقترن بالحيف السياسي على استقلال مصر ، فكانت الشركة العالمية تمثل الرمزين معًا : الاستغلال ومظاهره الاحتلال البريطاني وإعاقة الشعب المصري عن استقلال قراره .

وإذا كان مصدق قد انتهى وخلف وراءه الحدث والمعنى ، فإن عبد الناصر نجح في تأكيد إرادة مصر وهزيمة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ورفع راية الحرية في الشعوب المقهورة في العالم الثالث ، فكان التأميم والتصدي للعدوان تعبيرًا عن تغير قيم المجتمع الدولي عندما تكون الإرادة الوطنية هي العامل الأكبر ومقدمة لانحسار العصر الاستعماري كله .

ومن مفارقات الأقدار أن عبد الناصر الذي أعجب بمصدق وأطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة الشهيرة ، تصدى لسياسات الشاه الهادفة إلى النيل من استقلال دول الخليج ولم يفرق عبد الناصر بين الاستعمار البريطاني والمطامع الإيرانية في الخليج ، وكانت تلك الإشارة الأولى في الأدبيات العربية آنذاك إلى ما يسمى بالأطماع الإيرانية أو الخطر الإيراني في الخليج كما تصدى عبد الناصر إلى سياسات الشاه المتحالفة مع إسرائيل ، وتحالفه مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي ، مما انعكس على العلاقات المصرية الإيرانية حتى تولى السادات الحكم فأصبحت مصر وإيران معًا وأسباب أخرى حلفاء الولايات المتحدة وضد الاتحاد السوفيتي ، وهو شهر العسل الحقيقي في العلاقات الإيرانية المصرية الذي انتهي فعليًا ليس بسبب تغير القيادة في مصر بتولي الرئيس مبارك وإنما بسبب تغير القيادة في إيران منذ قيام الثورة الإسلامية وإعلانها قطع العلاقات مع مصر بسبب اتفاق كامب ديفيد عام ١٩٧٨ بين مصر وإسرائيل ثم انضمام إيران الإسلامية إلى جبهة المعارضة للسلام المصري الإسرائيلي .

فهل هناك مشابهات بين نجاد وعبد الناصر أبعد من كونها أكدا حق بلديهما الذي أنكره الغرب ، نجاد في حيازة التكنولوجيا النووية السلمية ، وعبد الناصر في عودة القناة إلى حضنها الوطني وملكية شعب مصر ، وأبعد من كونها نموذجين للنقاء واستهداف الفساد والعصامية والاستناد في الزعامة إلى ضمائر الشعوب والتصدي لمؤامرات الغرب بجسارة الواثق من مشروعية قضيته ؟

أعلم أن مجرد وضع اسم نجاد إلى جانب عبد الناصر على سبيل المقارنة قد يزعج البعض في العالم العربي سواء الذين يجدون في شخص عبد الناصر ما هو أسمى من المقارنة، أو الذين تأثروا بمعركة الغرب ضد إيران ، أو أولئك الذين يجدون في

إيران خطرًا يهدد المصالح العربية في العراق والخليج وأن قدراتها النووية تدفعها إلى مزيد من الطغيان والتجاسر على هذه الصالح . وربما رأى البعض في هذه المقارنة أن طغيان الغرب وإغفاله مصالح شعوب المنطقة دفع كتلتي الشيعة في إيران والسنة في مصر عبد الناصر على التمرد على سلطان الغرب ، خاصة لأولئك الذين يحلو لهم مثل هذا التصنيف الذي يقترن عند البعض الآخر بآثار سياسية مؤلمة . كما لا يخفى أن ظهور عبد الناصر وطموحاته العربية والمصرية وتمدده الإقليمي قد أزعج أطرافًا عربية حينذاك ولم يكن محل إجماع الزعماء العرب ، وإن كان سيد الشارع العربي ، ولا يزال ، بلا منازع وبرحيله بقي الشارع وتغيرت الزعامات وازدادت الهوة بين الطرفين ، وهو ما يدفع الشارع العربي دائمًا إلى استحضار عبد الناصر وصوره ، كأنما يريد الشارع أن يقول أنه يتمسك بالكرامة العربية والإصرار العربي على الحقوق وأن عبد الناصر كان ولا يزال هو الرمز .

ووضع عبد الناصر مع نجاد لا يعني المساواة بينهما عندما يتعلق الأمر بالمصالح الإيرانية والعربية ، وعندما يتعلق الأمر أيضًا حتى بالمصالح العربية ، حيث رأينا أعدادًا هائلة في العالم العربي لا تزال تزاوج بين عبد الناصر وصدام حسين رغم كل ما يقال عنه وما ارتكبه من جرائم قد تفسر عند البعض على أنها أفعال يختلف وضعها حسب الحقبة والزاوية التي تصنف منها ، أي أن اجرائم حتى نسبية في الحسابات السياسية ، بينما يرى البعض الذي يبدو معقولاً أن المشابهة بين صدام وعبد الناصر إهانة كاملة لعبد الناصر وخلط لأوراق مختلفة الألوان والأحجام والقيمة على الأقل في المزايا الشخصية من تواضع عبد الناصر وتقشفه مقابل كبرياء وصلافة صدام وإسرافه ، كما لا يمكن المقارنة بينهما ، في نظري حتى فيما سببه كل منهما من أضرار لبلده والمنطقة على خلاف ما يحلو لكثيرين أيضًا حتى بين كبار الباحثين أن يسجلوه .

| 5 |

القراءات الخمس للملف المصري الإيراني

المراقب من الخارج لمجريات الملف المصرى الإيرانى وتسخينه خاصة بعد الإعلان عن قضية حزب الله فى مصر لابد أن يقرأ هذا الملف بصور مختلفة. فمن ناحية، يلاحظ ارتفاع نغمة العداء لإيران فى مصر واتهامها بأنها تخطط من خلال حزب الله للإضرار بالأمن القومى المصرى، رغم تأرجح الموقف المصرى من قبل بين نغمة التصالح ونغمة العداء. ولاشك أن هذا الملف مربك للدارسين خاصة وهم يدرسون تصريحات متناقضة فى نفس الوقت بين كبار المسؤولين ولنفس المسؤولين. يدخل فى هذا المسار تصريح منسوب لبعض المسؤولين بأن هناك «خلافات جذرية» بين مصر وإيران، ومع ذلك فإن الحزب الحاكم يدرس فرص التقارب المصرى الإيرانى إذا جاءت فرصته ذات يوم. ثم راح البعض يسهم فى تصور ماعساه أن يكون «خلافات جذرية» فاعتبر من هذه الخلافات الجذرية معاداة إيران لإسرائيل ورفض الاعتراف بها، ومعنى ذلك أن إيران إذا اعترفت بإسرائيل فسوف يزول أحد هذه الخلافات الجذرية، وكأن من يعادى إسرائيل يعادى مصر بالتبعية. ثم يعلن نتانياهو بعد رحلته إلى مصر والأردن أنه لأول مرة منذ قيام إسرائيل يحدث توافق عربي إسرائيلى على مواجهة إيران وانحسار ملف الصراع العربى الإسرائيلى ليعطى الأولوية المطلقة فى هذه النظرة الاستراتيجية الجديدة للملف الإيرانى.

ولما كانت علاقة مصر بإيران من المصالح التى تهم كل الشعب المصرى فإننى لا أمانع فى أن تجتهد الحكومة كما تشاء، دون أن تجور على القسمات الأساسية للمصالح المصرية كما نراها، وتراها النخبة التى لاترى سوى المصلحة المصرية تعلو على الألوان المصلحية الأخرى الداخلية والخارجية، مع ملاحظة أن أصحاب هذه الرؤى الملونة هم المصدر الرئيسى لتحديد الحكومة لموقف مصر كلها من هذا الملف، أى أن هذا التيار الملون هو الذى يملى على كل المصريين رؤيته ويلزمهم بدفع الثمن لهذه الرؤية الجزئية.

ونظراً لخطورة القضية فإننى أقترح أن نبحث عن المصلحة المصرية فى خمسة قراءات للملف المصرى الإيرانى.

القراءة الأولى: أن استمرار الشقاق المصرى الإيرانى سببه الأساسى الخلاف الأمريكى الإيرانى، ونحن على قناعة مطلقة بأن العلاقات المصرية الإيرانية سوف تصبح فى أزهى عصورها إذا تم التوافق الأمريكى الإيرانى، وهو بطبيعته على حساب العالم إذا نظرنا إلى الصراع الأمريكى الإيرانى على أنه صراع بين مشروعين وتكالب على مساحة واحدة هى جسد العالم العربى.

هذا الانسجام المصرى الإيرانى سيزيل كل «الخلافات الجذرية الحقيقية» وهى التخلى عن مقاومة إسرائيل بما تسببه من احتكاك بين مصر والمقاومة، وتفاهم إيران مع إسرائيل مما يزيل حرجاً عن مصر بسبب استمرار الصراع بين إيران وإسرائيل، وهو فى الحقيقة تكالب على حصة مصر فى المنطقة التى قبلت مصر طواعية التخلى عنها. فإذا زال الخلاف الأمريكى الإيرانى، والإسرائيلى الإيرانى، وانطفأت المقاومة وخرجت أمريكا سالمة بترتيبات لضمان مصالحها فى العراق مع وجود عربى إسلامى لحماية تركيبة السلطة التى زرعتها واشنطن فى العراق، تكون واشنطن قد

رسمت نظاماً للتوازن الإقليمى ينطلق فيه المشروع الإيرانى والصهيونى ويقف فيه العرب حراسا لهذين المشروعين.

فجوهر الخلافات الجذرية بين مصر وإيران متغير. فعندما كانت إيران الشاه تتابع مشروعها فى الخليج خاصة بعد إعلان الانسحاب البريطانى، كان الاحتكاك مستمراً بين مصر الناصرية وإيران الشاهية، ثم صارت مصر وإيران فى شهر العسل فى ظل واشنطن أيام السادات والشاه، ولكن العداء الأمريكى لثورة إيران وموقف الثورة من إسرائيل ومشروعها وانعكاسات ذلك على مصر المتعاهدة مع إسرائيل أدى إلى هذا الملف الشائك بين مصر مبارك وإيران الثورة.

القراءة الثانية: ترى أن موقف مصر تجاه إيران يتحدد أساساً بعلاقة واشنطن بإيران من منطلق القواسم المشتركة والمتقاربة بين مصر وواشنطن خاصة فى هذه المرحلة، ومعنى ذلك أن كل الخلافات الجذرية «تزول بمجرد الوفاق الأمريكى الإيرانى».

القراءة الثالثة: ترى أن إيران أخطر على مصر فى طموحاتها من إسرائيل، وأن المشروع الإيرانى يهدد مصر وإسرائيل معاً، وأن دعم المقاومة من جانب إيران هو جزء من هذا المشروع، فتكون مصلحة مصر بالتوافق مع إسرائيل ضد إيران إلى أى درجة حتى لو كانت إسرائيل تنوى إنهاء المشروع الإيرانى بالقوة العسكرية. وربما كانت هذه القراءة تفسر فى جزء منها ما صرح به نتانياهو من وجود تناغم عربى نادر مع إسرائيل ضد إيران.

القراءة الرابعة: ترى أن مشروع إيران قد تمدد على حساب مصر، وهذه القراءة تفترض أن لمصر مشروعها، الذى انطوى وتراجع أمام تقدم المشروع الإيرانى. وهذه القراءة تؤدى إلى أن تدافع مصر عن مشروعها أمام الالتهام الإيرانى

وتتحالف حتى مع إسرائيل لتحقيق هذ الهدف.

القراءة الخامسة: ترى أن مصر قد انسحبت من المنطقة كلها ولم يعد لها سوى رجع الصدى والتعلق بأهداب مرحلة انقضت تماماً بالتدريج منذ ١٩٦٧ حتى الآن، وأن الدور المصرى بالمعنى الفنى ليس موجوداً إلا بما ينسجم مع التوجهات الأمريكية فيصبح موقفاً معلناً وليس دوراً. ومع انسحاب مصر تقدم محلها وعلى حسابها المشروعان الإيرانى والإسرائيلى ثم التركى ومن خلفهم جميعاً الأمريكى.

الحق أن هذه القراءات الخمس تلامس كل منها الحقيقة لكنها لاتمثلها بالكامل، ولذلك فنحن فى مصر بحاجة إلى عقليات جادة تحدد لمصر مصلحتها إزاء إيران وتفرق بين الطارئ المتغير من السياسات وبين الراسخ من الاستراتيجيات على ألا تعميها المرايا العاكسة عن الرؤية الثابتة.

obeikandl.com